تقرير خاص بندوة وحدة الدراسات الثقافية

"سؤال الانتماء ومدلول الهوية التونسية زمن الاصطدام بالغيرية الأوروبية"

عقدت وحدة الدراسات الثقافية في المعهد العالمي للتجديد العربي يوم الخميس 12يونيو 2023 ندوة علمية عنوانها: "سؤال الانتماء ومدلول الهوية التونسية زمن الاصطدام بالغيرية الأوروبية"، قدّمها الدكتور عادل النفاتي وهو عضو في المعهد، وباحث في التاريخ الثقافي المغاربي والمتوسطي، وعقّب على المداخلة كل من الدكتور لطفي عيسى وهو أستاذ التعليم العالي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، اختصاص تاريخ ثقافي، و الدكتور رياض بن خليفة، وهو أستاذ محاضر بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، اختصاص تاريخ معاصر؛ وقد تولى إدارة الندوة الدكتور محمد فارضي عضو المعهد، وأستاذ التعليم العالي في جامعة الحسن الأول– المغرب، الذي ركز في كلمته الافتتاحية على الأهمية التي يكتسيها سؤال الانتماء والهوية في ظل التحولات والتحديات التي تواجه العالم العربي في الراهن المعولم والمرقمن قبل أن يفسح المجال للدكتور النفاتي ليقدم مداخلته.

استهل الدكتور النفاتي مداخلته بالحديث عن حضور السؤال الهوياتي في حياة الشعوب والثقافات قديماً وحديثاً، مؤكداً أن موضوع الهوية قد يخفت توهجه أحيانا لكنه سرعان ما ينتشي في أوقات الصراعات والأزمات بين الغيريات المختلفة، أو في حالة ظهور مستجدات تراها الجماعات مهددة لكينونتها، لتسارع إلى استحضار سرديات هوياتية حفاظا على خصوصية الذات وتحصينها من التمثلات المشوهة التي يكونها الآخر. ثم عمد الباحث إلى استجلاء مدلول الهوية والانتماء مرتكزا على بعض التعاريف التي صاغها باحثون غربيون وعرب.

بعد هذا التقديم العام لمسألة الهوية في طرحها النظري، انتقل إلى الحديث عن سؤال الهوية التونسية في السياق العام للنصف الثاني من القرن التاسع عشر (زمن الاشتباك مع الآخر الأوربي) مؤكداً أن هذه اللحظة التاريخية تشكل نقطة تحول مفصلية في سؤال الهوية مثلما تبرزه السرديات التي أنتجتها الأقلام التونسية آنئذ حول الذات التونسية وهويتها، وقد استشهد الباحث– في هذا الصدد- بسرديتين:

- كتاب *سليمان الحرايري مع فتاويه* لأبي القاسم محمد كرو.
- كتاب *الرحلة الحجازية* لمحمد السنوسي

لقد حمل هذان المؤلفان أسئلة الهوية من قبيل من نحن؟ من هو آخرنا؟ وكيف تتحدد علاقتنا به راهنا ومستقبلا؟ لكنهما انطويا أيضا على اختلاف في الرؤية ووجهة النظر فيما يخص التعامل مع المسألة الهوياتية، ولئن تضمن كتاب الحرايري رؤية انفتاحية على الآخر بوصفه عنصر إثراء للذات، فقد وقف السنوسي في كتابه موقفاً رافضاً للآخر بدعوى الحفاظ على نقاء الشريعة في كل الأحوال والأمصار. وقد جاء موقف الرفض في سياق مخصوص اتسم بالحضور الاستعماري والخشية من المس بمقومات الهوّية التونسية، وفي سياق متوسطي- عربي وأوروبي– ينزع نحو تمجيد القوميات في مرحلة النضال الوطني ومقاومة الاستعمار. وقد أكد الباحث– في الأخير- أن جدل الهوية لم ينته وعاود الظهور من جديد بعد منعرج 14 يناير/ كانون الثاني 2011 في سياقات جديدة منفلتة وظهرت مواقف متباينة تم تصنيفها بين الحداثية والمحافظة.

أما الدكتور لطفي عيسى، فقد نوه في بداية كلمته التعقيبية بالقيمة الاعتبارية للمنجز البحثي الذي قام به الدكتور النفاتي، مشيراً إلى جملة من النقاط التي أثارتها المداخلة، تتعلق النقطة الأولى بإعادة تعريف لفظة الأزمة، بالتركيز على فكرة "الانتقال" التي يتضمنها هذا المفهوم ، أما النقطة الثانية فتتعلق بالعلاقة بين السرد والثقافة، والتداخل الاشكالي بين السردي والمعرفي، أما النقطة الثالثة فتتعلق بضرورة التفريق بين السياق التاريخي للقرن السادس عشر الذي يشكل زمن أزمة والسياق التاريخي للقرن التاسع عشر الذي هو مرحلة انتقالية على عكس ما روج له الاستشراق.

وقد ابتدأ الدكتور رياض كلمته التعقيبية من حيث انتهى الدكتور عيسى مشدداً على ضرورة الانتباه إلى السياق الذي تنتج ضمنه السردية الهوياتية بكل ما يحمله من تغيرات في الرؤى والمواقف، ملفتاً الانتباه إلى أهمية رصد تمثلات الهوية وتغيرها من خلال تبني النظرة من أسفل التي تهتم بالعامة وعدم الاكتفاء بما تكتبه النخبة، ثم قدم الباحث بعض الأمثلة حول مسألة تمثل الآخر في سياق الهجرة مشيراً إلى جملة من المفاهيم التي ترتبط بهذه المسألة كالاندماج ، الانصهار...